من صميم الحياة:

قصـــــة أب . . . !

للاستاذ على الطنطاوى

[مهداة إلى أخى الأستاذ عبد المنعم خلاف الذى لا يزال يؤمن بالانسان . . . !] « على »

دخل علىّ أمس ، بعد ما انصرف كتاب المحكمة ، وليست معطفى لأخرج ، رجل كبير يسحب رجليه سحباً لا يستطيع أن يمشى من الضعف والكبر . فسلم ، ووقف مستنداً إلى المكتب وقال :

إنى داخل على الله ثم عليك[1] ، أريد أن تسمع قصتى ، وتحكم لى على من ظلمنى .

قلت : تفضل ، قُلْ أسمع .

قال : على أن تأذن لى أن أقعد ، فوالله ما أطيق الوقوف .

قلت : أقعد ، وهل منعك أحد من أن تقعد ؟ أقعد ياأخى ، فان الحكومة ما وضعت فى دواوينها هذه الكراسى وهذه الأرائك الفخمة إلا ليستريح عليها أمثالك من المراجعين الذين لا يستطيعون الوقوف ، ما وضعتها لتجعل من الديوان (قهوة) يؤمّها (البطالون ...) الفارغون ، ليشتغل الموظف بحديثهم عن أصحاب المعاملات ... ويضاحكهم ويسامرهم الشاى والمرطبات ، والناس قيام ينتظرون لفتة أو نظرة من الـ (بك) !

لا . اسنا نريدها (فارسية) كسروية فى المحكمة الشرعية ، فاقعد مستريحاً فانه كرسى الدولة ، ليس كرسىّ أبى ولا جدى ، وقل ما تريد ...

* * *

قال : أحب أن أقص القصة من أولها ، فأرجو أن يسعنى صبرك ، ولا يضق بى صدرك ، وأنا رجل لا أحسن الكلام من أيام شبابى ، فكيف بى الآن وقد بلغت هذه السنّ ، ونزلت علىّ المصائب ، وركبتنى الأمراض ... ولكنى أحسن الصدق ولا أقول إلا حقاً ...

كنت فى شبابى رجلا مستوراً أغدو من بيتى فى حارة (كذا) على دكانى التى أبيع فيه الفجل والباذنجان والعنب ،

(١) تعبير عامى لا بأس به ، وقد أبقينا على مثلها فى حديث الرجل

الاجتهاد دون التقليد ، أن جريراً والفرزدق والأخطل أشعر ممن تقدم من شعراء الجاهلية ، وبينهم وبين أولئك فرق بعيد . وإذا استُفتيت قلت إن أبا تمام والبحترى والمتنبى أشعر من الثلاثة المذكورين ، وليس عندى أشعر منهم فى الجاهلية ولا فى الإسلام ... وإذا أنصف الناظر وترك التحامل ثم ترك التقليد عرف أن حرف الميم وحرف اللام من شعر أبى الطيب المتنبى قد ضمنا من الجيد النادر ما لم يتضمنه شعر أحد الفحول من شعراء العرب » .

مما تقدم نستخلص أن علماء اللغة والنحو والبيان لم ينظروا إلى القصيدة باعتبارها كُلاً تتساوق أجزاؤه إلى غرض واحد ، وإنما نظروا إلى ما تشتمل عليه أبياتها من غريب الكلم أو أصيل التراكيب أو محسنات اللفظ ، وجعلوا ذلك سبب التفضيل وعلة الاختيار وأساس الحكم . وقلّ منهم من فطن إلى وحدة . القصيدة كالحصرى القيروانى حين أشار إلى ذلك فى زهر الآداب وروى عن الحاتمى قوله : « مثل القصيدة مثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وبانه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفّى معالمه . وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون فى مثل هذا الحال احتراساً يجنبهم شواهد النقصان ، ويقف منهم على محجة الاحسان ، حتى يقع الاتصال ويؤمن الانفصال وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام تسيبها بمديحها ، كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها من جزء . وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم ، واعتمادهم البديع وأفانينه فى أشعارهم » ؛ ولكنهم لم يبسطوا هذا الرأى ولم يطبقوه فيما عالجوه من النقد والموازنة .

(الكلام بقية) أحمد حسن الزيات

وما يكون من خُضر الموسم وثمراته ، فأربح قروشاً معدودات أشترى بها خبزى ولحمى ، وآخذ ما فضل عندى من الخضر فيطبخه (أهل البيت[1]) ونأكله وننام حامدين ربنا على نعمائه ، لا نحمل هماً ولا نفكر فى غدٍ ، ولاصلة لنا بالناس ولا بالحكومة ، ولا نطالب أحداً بشىء ولا يطلب منا شيئاً . ولم أكن متعلماً ولا قعدت فى مدرسة ، ولكنى كنت أعرف كيف أصلى فرضى ، وأحسب دراهمى ... ولقد عشت هذا العمر كله ولم أغش ولم أسرق ولم أربح إلا الربح الحلال ، وما كان ينغّص حياتى إلا أنه ليس لى ولد ، فجربنا الوسائل وسألنا القابلات ولم يكن فى حارتنا طبيب ولم نحتج إليه . فقد كان لنا فى طبّ (حُسُّو العطار) وزُهوراته وحشائشه ما يغنينا عن الطبيب والصيدلى . وإذا احتجنا إلى خلع ضرس فعندنا الحلاق ، أما أمراض النساء فمردّ أمرها إلى القابلة ، ورحم الله أم عبد النافع قابلة الحارة ، فقد نيفت أربعين سنة تولد الحاملات ولم تكن تقرأ ولا تكتب .

أقول إنا سألنا القابلات والعجائز فوصفن لنا الوصفات فاتخذناها ، وقصدنا المشايخ فكتبوا لنا التمائم فعلقناها ، فلم نستفد شيئاً ؛ فلم يبق إلا أن ننظر أول جمعة فى رجب لنقصد (جامع الحنابلة)[2] ، فلما جاءت بعثت (أهل البيت) فقرعت حلقة الباب وطلبت حاجتها فنالت طلبها[3] ... وحملت ...

وصرت أقوم عنها بالثقيل من أعمال المنزل لأريحها خشية أن تسقط حملها وأكرمها وأدللها . وصرنا نعد الأيام والساعات حتى كانت ليلة المخاض فسهرت الليل كله أرقب الوليد ، فلما ابتلج الفجر سمعت الضجة وقالت (أم عبد النافع) : البشارة يا أبا ابراهيم ! جاء الصبى .

ولم أكن أملك إلا ريالا مجيدياً واحداً فدفعته إليها .

وقلّبنا الصبى فى فرش الدلال ، إن ضحك ضحكت لنا الحياة ، وإن بكى تزلزلت لبكائه الدار ، وإن مرض اسودت أيامنا وتنغص عيشنا . وكلما عا أسبوعاً كان لنا عيد ، وكلما نطق بكلمة جدت لنا فرحة ، وصار إن طلب شيئاً بذلنا فى إجابة مطلبه الروح ...

(١) كذلك يكنى الشاميون عن الزوجة إلى اليوم على عادة العرب من كراهية التصريح بذكرها .

(٢) فى الصالحية على سفح جبل قاسيون وكان يسمى دير الحنابلة وكان قائماً قبل أن يبنى آل قدامة فى الصالحية من نحو ثمانمائة سنة .

(٣) خرافة دمشقية وثنية كان أستاذنا الشيخ بهجة البيطار يشدد الحملة عليها كل سنة .

وبلغ سن المدرسة ، فقالت أمه : إن الولد قد كبر فماذا نصنع به ؟

قلت : آخذه إلى دكانى فيتسلى ويتعلم الصنعة .

قالت : أيكون خضرياً ؟

قلت : ولم لا ؟ أيترفع عن مهنة أبيه ؟

قالت : لا والله العظيم ! لابد أن ندخله المدرسة مثل عصمه ابن جارنا سموحى بك . أريد أن يصير (مأموراً) فى الحكومة فيلبس (البدلة) والطربوش مثل الأفندية ...

وأصرت إصراراً عجيباً ، فسايرتها ، وأدخلته المدرسة ، وصرت أقطع عن فمى وأقدم له ثمن كتبه . فكان الأول فى صفه ، فأحبه معلموه وقدروه وقدموه ...

ونجح فى الامتحان ، ونال الشهادة الابتدائية . فقلت لها : يا امرأة ! لقد نال ابراهيم الشهادة ، فحسبنا ذلك وحسبه وليدخل الدكان .

قالت يوه ! ويلى على الدكان ... أضيع مستقبله ودراسته ؟ ! لا بد من إدخاله المدرسة الثانوية .

قلت : يا امرأة ، من علمك هذه الكلمات ؟ ما مستقبله ودراسته ؟ أيترفع عن مهنة أبيه وجده ؟ قالت : أما سمعت جارتنا أم عصمة كيف تريد أن تحافظ على مستقبل ابنها ودراسته ؟ قلت : يا امرأة ، اتركى البكوات ... نحن جماعة عوام مستورون بالبركة ، فما لنا وتقليد من ليسوا أمثالنا ؟

فولولت وصاحت : ودخل الولد الثانوية ، وازدادت التكاليف فكنت أقدمها راضياً ... ونال البكالوريا .

قلت : وهل بقى شىء ؟

قال الولد : نعم يا بابا . أريد أن أذهب إلى أوربا

قلت : أوربا ؟ وما أوربا هذه ؟ !

قال : إلى باريز ...

قلت : أعوذ بالله ! تذهب إلى بلاد الكفار ؟ والله العظيم إن هذا لا يكون !

وأصر وأصررت وناصرته أمه ، فلما رأتنى لا ألين ، باعت سوارى عرسها وأقراطها ، وذلك كل ما لها من حلى اتخذتها عدة على الدهر ، ودفعت ثمنها إليه فسافر على الرغم منى !

وغضبت عليه وقاطعته مدة ، فلم أرد على كتبه ، ثم رق قلبى وأنت تعلم ما قلب الوالد ؟ وصرت أكاتبه وأسأله عما يريد ... فكان يطلب دائماً . .

ارسل لى عشرين ليرة ... ارسل لى ثلاثين ... فكنت أبقى أنا وأمه ليالى بطولها على الخبز القفار وأرسل إليه ما يطلب !

وكان رفاقه يجيئون فى الصيف وهو لا يجىء معهم ، فأدعو فيعتذر بكثرة الدروس ، وأنه لا يحب أن يقطع وقته بالأسفار !

ثم ارتقى فصار يطلب مئة ليرة . . وزاد به الأمر آخر مرة فطلب ثلاثمئة !

تصور يا سيدى ما ثلاثمئة ليرة بالنسبة لحضرى تجارته كلها لايساوى ثمنها عشرين ليرة ، وربحه فى اليوم دون الليرة الواحدة ؟ ويا ليته كان يصل إليها فى تلك الأيام التى رخصت فيها الأسعار ، وقل العمل ، وفشت البطالة ، ثم إنه إذا مرض أو اعتل علة ، بات هو وزوجته على الطوى ... فكتبت إليه بعجزى ونصحته ألا يحاول تقليد رفاقه ، فإن أهلهم موسرون ونحن فقراء فكان جوابه برقية مستعجلة بطلب المال حالا !

وإنك لتعجب يا سيدى إذا قلت لك إنى لم أتلق برقية قبلها فى عمرى . فلما قرع موزع البريد الباب ودفعها إلى ، وأخذ إبهام يدى فطبع بها فى دفتره ، انخرطت كبدى من الخوف ، وحسبتها دعوة من المحكمة ، وتوسلت إليه وبكيت ، فضحك الملعون منى وانصرف عنى ، وبتنا بشر ليلة ما ندرى ماذا نصنع ، ولا نعرف القراءة فنقرأ ما فى هذه الورقة الصفراء ، حتى أصبح الله بالصباح ولم ينمض لنا جفن ، وخرجت لصلاة الغداة فدفعتها لجارنا عبده أفندى فقرأها وأخبرنى الخبر ، ونصحنى أن أرسل المبلغ ، فلعل الولد فى ورطة وهو محتاج إليه !

فبعت دارى بنصف ثمنها ، أتسمع يا سيدى ؟ بعت الدار بمئتى ليرة ، وهى كل ما أملك فى هذه الدنيا ، واستدنت الباقى من مراب يهودى دلونى عليه ربا تسعة قروش عن كل ليرة فى الشهر ، أى أن المئة تصير فى آخر السنة مئتين وثمانية ! وبعثت بذلك إليه وخبرته أنى قد أفلست !

وانقطعت عنى كتبه بعد ذلك ثلاث سنوات ، ولم يجب على السيل من الرسائل التى بعثت بها إليه ! !

ومر على سفره سبع سنين كوامل لم أر وجهه فيها ، وبقيت بلا دار ، ولاحقنى المرابى بالدين ، فعجزت عن قضائه ، فأقام على الدعوى ، وناصرته الحكومة علىّ لأنه أبرز أوراقاً لم أدر ما هى فسألونى : أأنت وضعت بصمة اصبعك فى هذه الأوراق ؟

قلت : نعم . فحكموا على بأن أعطيه مايريد وإلا فالحبس . وحُبست يا سيدى . نعم حبست وبقيت (المرأة) وليس لها إلا الله ، فاشتغلت غسالة للناس ، وخادمةً فى البيوت ، وشربت كأس الذل حتى الثمالة

ولما خرجت من السجن قال لى رجل من جيراننا : أرأيت ولدك ؟ قلت : ولدى ؟ ! بشّرك الله بالخير . أين هو ؟ قال : ألا تدرى يا رجل أم أنت تتجاهل ؟ هو موظف كبير فى الحكومة ويسكن مع زوجته الفرنسية داراً فخمة فى الحىّ الجديد

وحملت نفسى وأخذت أمه وذهبنا إليه ، وما لنا أمنيّة فى العيش إلا أن نعانقه كما كنا نعانقه صغيراً ، ونضمه إلى صدورنا ونشبع قلوبنا منه بعد هذا الغياب الطويل . فلما قرعنا الباب ، فتحت الخادمة ، فلما رأتنا اشمأزت من هيئتنا ، وقالت : ماذا تريدون ؟ قلنا : نريد ابراهيم . قالت : إن البك لا يقابل الغرباء فى داره ، إذهبا إلى الديوان . قلت : غرباء يا قليلة الأدب ؟ أنا أبوه . وهذه أمه.

وسمع ضجتنا فخرج ، وقال : ما هذا ؟ وخرجت وراءه امرأة فرنسية جميلة

فلما رأته أمه بكت وقالت : ابراهيم حبيبى ؟ ومدّت يديها وهمّت بالقاء نفسها عليه ، فتخلى عنها ونفض ماسسته من ثوبه وقال لزوجته كلمة بالفرنساوى ، سألنا بعد عن معناها فعلمنا أن معناها (مجانين) !

ودخل وأمر الخادم أن تطردنا ... فطردتنا يا سيدى من دار ولدنا !

وما زلت أتبعه حتى علقت به مرة فهددنى بالقتل إذا ذكرت لأحد أنى أبوه وقال لى : ماذا تريد أيها الرجل ؟ دراهم ؟ أنا أعمل لك راتباً بشرط ألا تزورنى ولا تقول إنك أبى ! !

ورفضت ياسيدى الراتب وعدت أستجدى الناس ، وعادت أمه تغسل وتخدم حتى عجزنا وأقعدنا الكبر والمرض فجئت أشكو إليك فماذا نصنع ؟

فقلت للرجل : خبرنى أولا ماسم ابنك هذا وما هى وظيفته ؟

فنظر إلىّ غاضباً وقال : أتحب أن يقتلنى ؟ !

قلت : إن الحكم لا يكون إلا بعد دعوى ، والدعوى لا تكون إلا بذكر إسمه .

قال : إذن أشكو شكاتى لله .

وقام يجرّ رجله يائساً ... حتى خرج ولم يعد !

على الطنطاوى